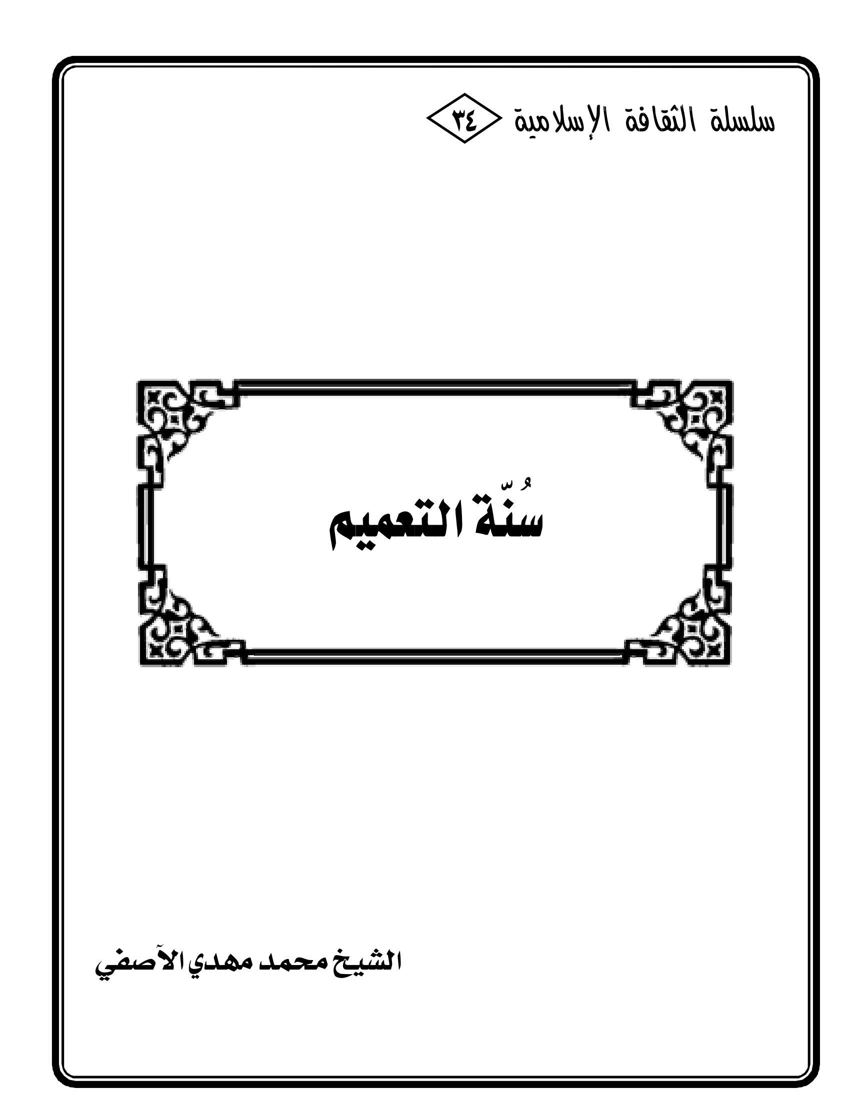


مختارات منتقاة من محاضرات ومؤلفات

الشيخ محمد مهدي الآصفي حفظه الله

اسم الكتاب: .... سنّة التعميم

المؤلف:.. محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الأولى: .... ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩م

الكمية.. ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة: .... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ
أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ
وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ*
ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ
لِّلْعَبِيدِ*
الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ
يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ
قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ
فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

آل عمران ١٨١ ـ ١٨٣

سُنَّةُ التعميم

شأن نزول الآيات

روى سعيد بن جبير في شأن نزول هذه الآية: أنه، لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[1].

قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربّك، فسأل عباده القرض.

فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ..﴾[2].

دلالة الآيات على سُنَّةِ التعميم

تُدين هذه الآيات اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بأمرين: قولهم: ﴿إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾، و﴿قَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

وقد سمع الله قولهم: ﴿إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾.

١ ـ البقرة: ٢٤٥.

٢ ـ تفسير ابن كثير ١: ٤٣٤.

وأوعدهم: أن يكتب عنهم ما قالوا من الإفك، ويدينهم بما قالوا، وبقتلهم الأنبياء بغير حق. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

ويُذيقهم عذاب الحريق بما نطقوا من الإفك، وبما صنعوا من قتل الأنبياء بغير حق. ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وتؤكد الآية الكريمة لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ: أنهم إنما استحقوا عقوبة عذاب الحريق بما قدمت أيديهم من الإفك والإثم، وليس الله بظلام للعبيد.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

ثم تحكي عنهم الآية الكريمة أنهم طلبوا من رسول الله ﷺ: أن يأتيهم بقربان تأكله النار، حتى يؤمنوا برسالته وقالوا إن الله عهد إليهم بذلك. ﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾.

فتحاججهم الآية الكريمة بمن قد جاءهم من قبل، من الرسل بالبينات، وبالذي طلبوا من القربان الذي تأكله النار...

ومع ذلك فلم يؤمنوا، وأصرّوا على اللّجاج والعناد، وقتلوهم بغير حق. ﴿قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وليس من شك أن المخاطبين في هذه الآيات من سورة آل عمران هم اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ، والضمائر كلها تعود إليهم.

فهم الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء﴾.

وهم الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ...﴾.

والخطاب موجه إليهم في هذا السياق وليس في ذلك شك، وقراءة سريعة للآيات الكريمة من سورة آل عمران تكفي لتأكيد هذه الحقيقة.

ومع ذلك، فإن الله تعالى يدينهم، ويوعدهم بعذاب الحريق، بجرائم آبائهم في قتل الأنبياء من بني إسرائيل بغير حق، ولم يكن لهم أيّ دور في ذلك بالنظرة السطحية التي ينظر الناس من خلالها التاريخ والمجتمع.

والآيات الكريمة صريحة في الإدانة وفي العقوبة معاً. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

فيدينهم الله تعالى ويعاقبهم بـ(ما فعلوا) و(ما لم يفعلوا). ثم تحاججهم الآية الكريمة بما يلزم آباءهم من قتل الأنبياء بغير حق... وهذه حجة تُلزم آباءهم الذين قتلوا الأنبياء، أما الأبناء الذين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بقربان تأكله النار فلم يقتلوا نبياً، ولم يعاصروهم، فكيف تحجُّهم الآية الكريمة بما لم يفعلوا، ولم يكن لهم فيه دور وشأن؟

وجواب هذه الأسئلة جميعاً في (سُنَّة التعميم).

فقد عمّم الله تعالى مسؤوليّة الآباء في قتل الأنبياء على الأبناء، كما عمّم الله تعالى عقوبة الآباء في هذه الجريمة على الأبناء، ثم عمَّم الله الحجة التي تُلزم الآباء على الأبناء. وهذه التعميمات جميعاً تتبع سُنَّة إلهية عامة هي سُنَّة «التعميم». وهذه السُّنَّة هي دليل هذه الإدانة والعقوبة والاحتجاج.

ومعنى «التعميم» في هذه الآيـة الكريمـة أن الله تعـالى يشـرك الأبناء في مسؤوليات الآبـاء وجـرائمهم وعقوبـاتهم ومـا يُلـزمهم ويُحجهم.

ꕤ

عامل التعميم

وعامل التعميم: الرضا والسخط.

والرضا والسخط من الحب والبغض.

فإذا رضي الإنسان بعمل قوم اُشرك في عملهم، من خير أو شر وعوقب عليه ان كان شراً، وأثيب عليه، ان كان خيراً.

وإذا سخط الإنسان على قوم لم يلحقه إثْمهم.

فالحب والرضا يلحقان الإنسان بالذين يحبهم ويرضى عنهم.

والبغض والسخط يفصلان الإنسان عن الذين يبغضهم ويسخط عليهم.

فهو عامل للوصل والفصل.

وحيث كان اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ راضين بفعل آبائهم في قتل الأنبياء... فإن الله تعالى يحمّلهم مسؤولية جرائم آبائهم ويدينهم بها ويعاقبهم عليها، ويلزمهم الحجّة بذلك، مع أنهم لم يعاصروا أولئك الأنبياء، ولم يدركوهم فضلا من أن يكون لهم دور في قتلهم.

روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

«إن الله حكى عن قوم في كتابه: ﴿**أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

قال: بين القاتلين والقائلين خمسمائة عام، فألزمهم الله القتل برضاهم ما فعلوا»[1].

وعن محمد بن الأرقط عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

قال: تنزل الكوفة؟. قلت: نعم.

قال: فترون قتلة الحسين بين أظهركم؟

قال: قلت: جعلت فداك ما رأيت منهم أحداً.

قال: فإذن أنت لا ترى القاتل إلا من قتل أو من ولي القتل؟ ألم تسمع إلى قول الله: ﴿**قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

فأي رسول قتل الذين كان محمد ﷺ بين أظهرهم؟ ولم

---

١ ـ الكافي ٢: ٤٠٩ ح١.

يكن بينه وبين عيسى عليه السلام رسول.

إنما رضوا قتل أولئك، فسمّوا قاتلين»[1].

الإشراك بـ(الرضا):

فالرضا يشرك الراضي في فعلِ من يرضى عنه، من خير أو شر، مارس الفعل أم لم يُمارسهُ، وفي كل الآثار: في المثوبة والعقوبة، والمسؤولية والإدانة.

عن أميرالمؤمنين عليه السلام، برواية الشريف الرضي (في نهج البلاغة):

«أيها الناس، إِنما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب، لما عمّوه بالرضا.

قال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادمينَ﴾[2].

فما كان إلاّ أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة في الأرض الخوارة»[3].

١ ـ بحار الأنوار ٩٧: ٩٥ ح ٤ عن تفسير العياشي ١: ٢٠٨.

٢ ـ الشعراء: ١٥٧.

٣ ـ نهج البلاغة ٢: ٢٠٧.

وعن أميرالمؤمنين عليه السلام: «الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم. وعلى كل داخل في باطل إِثمان: إثم العمل به، والرضا به»[1].

والإمام عليه السلام يحلّل في هذه الكلمة العناصر التي تتركب منها الجريمة إلى إثمين: «إثم العمل به وإثم الرضا به».

ولا يختص أمر هذا التعميم بالباطل والإثم، بل يعمّ الحق والثواب أيضاً.

المشاركة في التاريخ بالرضا والسخط

ورد في بعض النصوص الجامعة في زيارة الأئمة عليهم السلام الشهادة بأنا قد شاركنا أولياءهم وأنصارهم والمقاتلين بين أيديهم في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين، وهي شهادة غريبة لا يفقهها إلاّ من يفقه سُنَّة الله في التعميم. واليك هذا النص من بعض النصوص الجامعة لزيارة أئمة أهل البيت عليهم السلام:

١ ـ نهج البلاغة ٣: ١٩١.

«فنحن نشهد الله أنا قد شاركنا أولياءكم وأنصاركم المتقدمين، في إراقة دماء الناكثين والقاسطين والمارقين، وقتلة أبي عبدالله سيد شاب أهل الجنة يوم كربلاء، بالنيّات والقلوب، والتأسف على فوت تلك المواقف، التي حضروا لنصرتكم»[1].

فهذا باب واسع من الفقه في هذا الدين. وهو فقه «الرضا» و«السخط»، وانطلاقاً من هذا الفقه فنحن قد شاركنا إبراهيم عليه السلام رائد التوحيد في دعوة التوحيد، وفي تحطيم الأصنام ومقاومة طاغية عصره نمرود، وشاركنا موسى عليه السلام وعيسى بن مريم عليهما السلام في دعوة التوحيد ورفض طغاة عصره، وشاركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حروبه وغزواته، ونشارك الصلحاء والأولياء وأئمة التوحيد، والدعاة الهداة، والذاكرين المسبحين لله تعالى عبر التاريخ في الدعوة إلى الله، والنصيحة لعباد الله، والذكر، والتسبيح، والآلام، والهموم، وما أراقوا من دماء الظالمين، وما أُريق لهم من الدماء، وما هدموا من أركان الظلم والشرك، وما أشادوا من أركان التوحيد والعدل...

1 ـ المزار للشيخ محمد بن المشهدي: ٢٩٩، ط. مؤسسة النشر الإسلامي بقم، ١٤١٩هـ وعنه بحار الأنوار ٩٩: ١٦٧ الزيارة الجامعة الخامسة.

وهذا باب واسع من الفقه والمعرفة لا يسعه هذا المقال.

وقد روي بطرق كثيرة: «المرء مع من أحبَّ»[1].

كسب الأمة وكسب الفرد

نلتقي في القرآن، ربما لأول مرة في تاريخ الثقافة بفهم جديد للأمة. وانطلاقاً من هذا الفهم الجديد للأمة، ليست الأمة بمعنى تجمع كمّي من الناس، وإنما هي حالة بشرية كيفية، فلا تساوي الأمة مجموعة الأفراد وآثارهم وقوتهم. وليست الأمة من حيث الأساس من مقولة الكم، وإنما هي من مقولة الكيف.

فلا تكون قوة الجماعة مجموعة قوى الأفراد... بل «يد الله على الجماعة» و«مع الجماعة».

و«يد الله» أمر آخر غير المجموعة الكمية لقوة الأفراد. ولا تختلف في ذلك الأمة المؤمنة عن غيرها، فان للأمة في القرآن أحكاماً وآثاراً غير ما لمجموع الأفراد من الأحكام والآثار.

والأمة الواحدة لا يحصرها الزمان والمكان، ولا يضرّ

1 ـ ميزان الحكمة ٢: ٢١٤ ـ ٢١٥.

بوحدتها تعدد المكان والزمان. والقرآن يعبّر عن هذه الأمة المباركة بأنها من ملّة إبراهيم: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾[1].

ويعبّر عن إبراهيم عليه السلام بأنه الأب الأول لهذه الأمة: ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلمينَ**﴾[2].

وعن هذه الوحدة التي تطوي الزمان والمكان يقول تعالى: ﴿**وَإِنَّ هَذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون**﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ هَذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون**﴾[4].

وانطلاقاً من هذا كله فان القرآن يقرر أن للأُمة فعلا وكسباً، وهو غير فعل الفرد وكسبه، ونتائج كسب الأُمة تعم الأمة كلها في الخير والشر، حتى من لم يشارك، ولم يكن له دور في هذا الكسب... إذا كان يشاركهم في الرضا والسخط، وأما نتائج

---

١ ـ النساء: ١٢٥.

٢ ـ الحج: ٧٨.

٣ ـ المؤمنون: ٥٢.

٤ ـ الأنبياء: ٩٢.

كسب الأفراد فتخصهم وحدهم ولا تعم غيرهم.

وعليه فهناك طائفتان من الكسب والفعل:

الطائفة الأُولى من الكسب ما يتعلق بالأمة مثل الشعائر والأعراف والأعمال الجمعية. وما يرضى عنه الناس ويُقرّوه ويدعموه بالتأييد. وتعم آثار هذه الأعمال الناس جميعاً من شارك فيها ومن لم يشارك في الخير والشر معاً.

و**الطائفة الثانية** من الكسب ما يخص الأفراد، ولا يكون له مردود على الهيئة الاجتماعية بشكل واضح في الدنيا والآخرة، وعن هذه الطائفة يقول تعالى: ﴿**وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ للإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى**﴾[2].

وعن «كسب الأمة» الّذي يعم الأمة كلها يقول تعالى: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا**

---

١ ـ الزمر: ٧.

٢ ـ النجم: ٣٩ ـ ٤١.

كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

لكل أمة ما كسبت من خير أو شر، ولا تسأل أمة عما كسبت أمة أخرى. ولا يخص كسب الأمة الذين شاركوا في هذا الكسب. وإنما يعمهم جميعاً إذا عمّوه بالرضا[2].

إن الخير والشر الذي تكسبه الأُمة يعم الأُمة جميعاً، العاملين وغير العاملين، إذا عموه بالرضا. وهذه السُنَّة سُنّة عامة في الدنيا والآخرة.

١ ـ البقرة: ١٣٤ و١٤١.

٢ ـ تختلف هذه السنّة عن السنّة التاريخية والاجتماعية الأخرى التي تقررها آية الأنفال المباركة ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾. فان هذه الأخيرة تخص الدنيا فقط دون الآخرة، وتعم الراضين وغير الراضين، وهي تجري في الخير والشر جميعاً، فإذا استسقى قوم من المؤمنين المطر، فانزل الله عليهم الغيث عمَّ الخير جميعهم في الدنيا حتى من كان على غير ملّتهم، ولم يكن على هواهم، ولم يشاركهم في الرضا والسخط. وإذا أشعل قوم فتنة في المجتمع عمّ شرّها الجميع، حتى الذي لم يشاركوهم في الرضا والسخط، وتختص آثار هذه السنّة بالدنيا دون الآخرة، بينما تعم سنة التعميم التي نحن بصدد الحديث عنها الناس في الدنيا والآخرة، وتعم الراضين فقط دون غيرهم ممن لا يشاركهم في الرضا والسخط. وهذا هو الذي نقصده نحن من سنّة التعميم. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

هذه السنّة تجمع وتُفرِّق، وتُوصِل، وتفصل. تَجمع الناس من بقاع شتى من الأرض، وفي فترات متباعدة من التاريخ، فتجعل منهم امة واحدة، عندما يجمعهم الرضا والسخط والولاء والبراءة.

ويفرّق الأسرة الواحدة والبيت الواحد إلى أُمتين وجبهتين، لا تلتئمان، ولا تجتمعان، إذا افترقا في الرضا والسخط وفي الولاء والبراءة.

وهذه السُنَّة تصل فرداً بآخر، لا تجمعهم لغة ولا إقليم ولا زمان ولا تعارف، وتفصل الأخ عن أخيه الشقيق الّذي يجمعه بيت واحد وأُسرة واحدة.

فيكسب الإنسان في الحالة الأُولى ممن لا يعرفه ولا يجمعه به بيت أو مكان أو زمان أو لسان، ولا يشاركه في أصل أو رحم... يكسب الإنسان منه صالح أعماله جميعاً. أو سيئات أعماله جميعاً، إذا كان يجمعه به الرضا والسخط.

وينشطر في الحالة الثانية الأسرة الواحدة والبيت الواحد، في السعادة والشقاء فيسعد أحدهم بالجنة ويشقي الآخر في النار، خالدين فيها، إذا كانا يفترقان في الرضا والسخط.

موارد التعميم

سُنَّة التعميم سُنَّة عامة شاملة، تشمل الدنيا والآخرة، وتعم الخير والشر، ومواردها ومصاديقها وأنحاؤها في حياة الناس كثيرة.

ونحن نذكر إن شاء الله فيما يلي بعض أنحاء وموارد هذه السُّنَّة الإلهية في حياة الناس في ضوء النصوص الإسلامية من الكتاب والسنة:

١. التعميم في الإدانة والمسؤولية والعقوبة:

إذا ارتكب قوم جريمة وعمَّهم الآخرون بالرضا عمتهم المسؤولية والإدانة.

وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك بداية هذا الحديث في تفسير الآيات الكريمة ١٨١ ـ ١٨٣ من سورة آل عمران.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

ووجدنا أن الله تعالى يدين الأبناء بجرائم الآباء، ويعاقبهم بها، ويقول: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقرأنا كلمة أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «وإنما قتلَ ناقة ثمود رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا، قال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾».

ولا تُغير هذه السُّنَّة الإلهية في تعميم الإدانة والمسؤولية والعقوبة كثرةُ الراضين بها، فإن الإدانة والمسؤولية واستحقاق العقوبة يشملهم جميعاً مهما كثروا، إذا كانوا راضين بالجريمة.

عن أبي سعيد الخدري: «وجد قتيل على عهد محمد رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج صلى الله عليه وآله مغضباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يقتل رجل من المسلمين، لا يُدْرى من قتله، والذي نفسي بيده لو أنَّ أهل السماوات والأرض إجتمعوا على قتل مؤمن أو رضوا به لأدخلهم الله في النار»[١].

وعن سليمان بن خالد عن ابن عبد الله عليه السلام:

١ ـ بحار الأنوار ١٠٤: ٣٨٤ ح٥.

«لو أن أهل السماوات والأرض لم يحبوا أن يكونوا شهدوا مع رسول الله ﷺ لكانوا من أهل النار»[1].

ولا يُغير هذه السُّنَّة الإلهية تباعد المكان، فلو أن رجلا قتلَ آخر ظلماً بالمشرقِ فرضي به آخر في المغرب لاستحق بذلك النار.

روي عن رسول الله ﷺ:

«لو أن رجلا قُتلَ بالمشرقِ، وآخر رضي به في المغرب، كان كمن قتلهُ وشرك في دمه»[2].

ودائرة الرضا دائرةً واسعةً تطوي الزمان والمكان، وتعم الناس في أوسع مساحة يتصورها الإنسان.

وقد روي «إن الراضين بقتل الحسين شركاء قتله. ألا وإن قتلتهِ وأعوانهم وأشياعهم والمقتدين بهم، براء من دين الله»[3].

---

١ ـ بحار الأنوار ٧١: ٢٦٢ ح٦.

٢ ـ بحار الأنوار ١٠٤: ٣٨٤ ح٦.

٣ ـ بحار الأنوار ٨: ٣١١ ح ٧٩.

وروي: «أن الحجة المنتظر (عجل الله فرجه) إذا خرج يقتل ذراري قتلة الحسين (عليه السلام) لرضاهم بفعال آبائهم»[1].

٢. التعميم في الحجة:

قرأنا بداية هذا البحث أن الله تعالى ألزم اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بفعل آبائهم، واتخذهُ حجة عليهم عندما طالبوا رسول الله ﷺ بان يأتيهم بقربان تأكله النار ليؤمنوا به، فحاججهم القرآن بمن جاءهم قبل رسول الله ﷺ من الأنبياء بالبينات وبالقربان، فقتلوهم ولم يؤمنوا بهم.

﴿الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ * قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وفي الآية ٩١ من سورة البقرة يحاجج القرآن اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بأنهم إذا دعوا إلى الإيمان بما أنزل

---

١ ـ مستدرك سفينة البحار ٤: ١٥٣ عن علل الشرايع، وعيون أخبار الرضا (عليه السلام).

الله تعالى على رسوله ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ﴾ مما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ بعد ذلك.

فيأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يحاججهم في ذلك:

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وكيف يصح دعواهم بأنهم يؤمنون بما أنزل عليهم فقط دون غيرهم، إذا كانوا يقتلون الأنبياء الذين أُرسلوا إليهم؟

فيلزم القرآن الأبناء بالحجة التي تلزم الآباء.

تأملوا في هذه الآية من سورة البقرة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ
قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٣.التعميم في الثواب:

وكما تَعم المسؤولية والعقاب، يَعمُ الثواب وحسن الجزاء،

العاملين والراضين، وهو من أبواب رحمة الله تعالى على عباده، فتحها على عباده يشركهم من خلالها في ثواب أعمال الصالحين وجهادهم ودعوتهم إلى توحيد الله وقيامهم وركوعهم بين يَدي الله وذكرهم وتسبيحهم ومواقفهم... وهو من يقينيات الثقافة الإسلامية!

روى المحدث القمي في كتابه القيم (نَفَس المهموم) بسند صحيح عن الريان بن شبيب رحمه الله، خال المعتصم. قال:

«دخلت على أبي الحسن الرضا عليه السلام في أول يوم من محرم، فقال يا أبن شبيب أصائمٌ أنت؟ فقلت: لا.

فقال: إنَّ هذا اليوم هو اليوم الذي دعا فيه زكريا ربَّه عزّوجلّ فـ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء﴾، فاستجاب الله له. وأمر الملائكة، فنادت زكريا، وهو قائم يصلي في المحراب: ﴿أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾، فمن صام هذا اليوم، ثم دعا الله عزّوجلّ، استجاب الله له كما استجاب لزكريا.

ثم قال: يا بن شبيب، إن المحرم هو الشهر الذي كان أهل

الجاهلية فيما مضى يحرمون فيه الظلم والقتال لحرمته. فما عَرِفت هذه الأمة حرمة شهرها، ولا حرمة نبيهاﷺ. لقد قتلوا في هذا الشهر ذريتهُ وسبوا نساءهُ، وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك ابداً.

يا بنَ شبيب إن كنت باكياً لشيء فابك للحسين بن علي بن ابي طالبعليه السلام. فانه ذُبِح كما يُذبح الكبش، وقُتِلَ معه من أهل بيتِه ثمانية عشر رجلا ما لهم شبيهون في الأرض...

يا بن شبيب إِن سرّك أن تلقى الله عزّوجلّ ولا ذنب عليك فزر الحسينعليه السلام.

يا بن شبيب إن سرّك أن تسكن الغرف المبنية في الجنة مع النبيﷺ فالعن قتلة الحسينعليه السلام.

يا بن شبيب إن سرّك أن يكون لك من الثوابِ مثل من استشهد مع الحسينعليه السلام فقل متى ما ذكرته: (يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما).

يا بن شبيب إن سرّك أن تكون معنا في الدرجات العلى في الجنان فاحزن لحزننا، وافرح لفرحِنا وعليك بولايتنا، فلوا أن

رجلا تولى حجراً لحشره الله تعالى يوم القيامة»[1].

وروي في «بشارة المصطفى» عن عطية العوفي: قال:

«خرجت مع جابر بن عبد الله الأنصاريرضي الله عنه، زائرين إلى قبر الحسين بن علي بن أبي طالبعليهما السلام، فلما وردنا كربلاء دَنا جابر من شاطئ الفرات فاغتسل، ثم أتزر بازار، وارتدى بآخر، ثم فتح صرّة فيها سعد فنثرها على بدنِه، ثم لم يخط خطوة إلاّ ذكر الله، حتى إذا دنا من القبر، قال ألمسنيه، فألمسته، فخرّ على القبر مغشياً عليه، فرششت عليه شيئاً من الماءِ فأفاق.

ثم قال: يا حسين، ثلاثاً، ثم قال: حبيب لا يجيب حبيبه، ثم قال: وأنّى لكَ بالجوابِ وقد شُحِطَتْ أوداجك على أثباجك[2]، وفُرِقَّ بين بدنك ورأسك، فأشهد أنك أبن النبيين، وأبن سيد المؤمنين، وأبن خليف التقوى وسليل الهدى وخامس أصحاب الكساء وابن سيد النقباء، وابن فاطمة سيدة النساء، ومالكَ لا

١ ـ نفس المهموم: ٣٦، تحقيق الأستادي. وأمالي الصدوق: ٧٩ المجلس ٢٧.
٢ ـ جمع ثبج: ما بين الكاهل إلى الظهر.

تكون هكذا، وقد غَذَّتكَ كف سيد المرسلين، ورُبِّيتَ في حجر المتقين، ورضعت من ثدي الإيمان، وفطمت بالإسلام، فطبت حيّا وميتاً، غير أن قلوب المؤمنين غير طيبةً بفراقكَ، ولا شاكةً في الخيرة لك. فعليك سلام الله ورضوانه. وأشهد انك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريا.

ثم جال ببصرهِ حول القبر وقال: السلام عليكم أيتها الأرواح التي حلّت بفناء الحسين، وأناخت برحلهِ. أشهد أنكم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتى أتاكم اليقين.

والّذي بعثَ محمداً بالحق لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه.

قال عطية: قلت: وكيف؟ ولم نهبط وادياً ولم نعل جبلا، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فرق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأوتمت أولادهم، وأرملت الأزواج؟

فقال: يا عطية سمعت حبيبي رسول الله ﷺ، يقول: من أحب قوماً حُشر معهم، ومن أحب عملَ قوم أُشرك في عملهم. والذي

بعث محمداً بالحق نبياً إن نيتي ونيةَ أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه، خذوا بي نحو أبيات كوفان، فلما مررنا ببعض الطريق قال لي: يا عطية هل أوصيك؟ وما أظن إنني بعد هذا السفر ملاقيك! أحبّ محبّ آل محمد ما أحبّهم، وأبغض مبغض آل محمد ما أبغضَهم، وان كان صوّاماً قوّاماً، وأرفق بمحب آل محمد فأنه إن تزل لهم قدم بكثرةِ ذنوبهم، تثبت لهم أُخرى بمحبتهم؛ فإنّ محبهم يعود إلى الجنة ومبغضهم يعود إلى النار»[١].

٤ـ التعميم في نسبة العمل:

والله تعالى ينسب جرائم الآباء، في قتلهم للأنبياء، إلى الأبناء في اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ، وليس فقط يحمل الأبناء مسؤولية جرائم الآباء، ويدينهم بها، ويعاقبهم عليها، وإنما ينسب فعل الآباء إلى الأبناء مباشرة وبالصراحة.

قال تعالى: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

١ ـ بحار الأنوار: ٦٨: ١٣٠ـ١٣١ح٦٢و١٠١: ١٩٥ح٣١، وبشارة المصطفى: ٧٤ ط. ١٣٨٣ هـ

والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ بالتأكيد: **﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**. وأفصح وأصرح من ذلك كله قولهُ تعالى في خطابه لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ: **﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾** والخطاب لليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ (الأبناء) من غير شك.

٥. التعميم في الشهود والحضور:

وتتجاوز هذه السُّنَّة الإلهية في التعميم حدود المسؤولية والإدانة والثواب والنسبة، وتنسب إليهم الشهود والحضور، فتنسب إلى الغائبين الحضور والشهود للموقع الذي غابوا عنه، وتفصلهُ عنهم مئات السنين والمسافات الممتدة الطويلة.

والشهود والحضور أعمق مراتب التعميم.

يقول الشريف الرضي في (نهج البلاغة): لما أظفر الله تعالى أميرالمؤمنين عليه السلام بأصحاب الجمل قال له بعض أصحابه: وددتُ أن أخي فلانا كان شاهداً ليرى ما نصرك الله به على أعدائك.

فقال عليه السلام: «أهوى أخيك معنا؟ قال: نعم.

قال فقد شَهدنا. ولقد شهدنا في عسكرنا هذا قوم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف الزمان بهم، ويقوي بهم الإيمان»[1].

وفي النهروان بعد أن أستتبت المعركة، وانتهت فتنة الخوارج تمنى أحد أصحابهِ أن يكون قد حضر أخ له المعركة.

فقال عليه السلام: «لقد شهدنا في هذا الموقف أناس لم يخلق الله آباءهم»[2].

ورحم الله السيد الحميري يعكس هذا الوعي العميق للتاريخ، وإرتباط الخلف بالسلف وتعميم الحضور في تاريخ الآباء للأبناء... في أبيات من الشعر، كلها وعي، ومعرفة. يقول رحمه الله:

١ ـ نهج البلاغة خطبة ١٢.

٢ ـ بحار الأنوار ٧١: ٢٦٢ ح ٥ و٦.

إنّي أدين بما دان الوصي[1] به يوم الخريبة[2] من قتل المحلينا

وبالذي دان يوم النهر[3] دنت به وشاركت كفّه كفّي بـ(صفينا)

تلك الدماء معاً يا ربِّ في عنـ ـقي ومثلها فاسقني آمين آمينا[4]

وروي عن أبي جعفر الثاني عليه السلام:

«من شهد أمراً فكرهه كان كمن غاب عنه، ومن غاب عن أمر فرضيه كان كمن شهده»[5].

إن (الرضا) يُحضّر الغائب البعيد عبر القرون و(السخط) يغيّب الحاضر الشاهد.

وعن الرضا عليه السلام: «من غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهده وأنساه»[6].

---

١ ـ الوصي = أمير المؤمنين.

٢ ـ الخريبة = موضع بالبصرة كانت به واقعة الجمل، ذكره ياقوت واستشهد بالبيت.

٣ ـ يوم النهر = النهروان.

٤ ـ أخبار السيد الحميري للمرزباني: ١٧٨، أعيان الشيعة للسيد الأمين ٣: ٤١٦.

٥ ـ تحف العقول: ١٠٠ وبحار الأنوار ١٠٠: ٨١ ح ٣٨.

٦ ـ وسائل الشيعة ١٦: ١٣٩ ح٥ عن العلل والتوحيد وعيون الأخبار.

٦. التعميم في النتائج والسنن الإلهية في المجتمع والتاريخ:

للطاعة والعصيان آثار ونتائج في حياة الناس الاجتماعية. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ﴾[3].

وهذه النتايج والآثار تجري في حياة الناس بموجب سنن الله

---

١ ـ الأعراف: ٩٦.

٢ ـ الأنفال: ٥٢ ـ ٥٣.

٣ ـ آل عمران: ١٣٧.

تعالى وهي سنن حتمية تجري بأمر الله.

إلاّ أن هذه السنن لا تخص العاملين والحاضرين فقط، وإنما تشمل الحاضرين والغائبين، إذا كان يجمعهم الرضا والسخط.

تـأمّلوا فـي الآيـات المباركـات مـن سـورة البقـرة (٦١) وآل عمران (١١٢) حيث يذكر الله تعالى العقوبات التي عاقب بها اليهود على جرائمهم الكثيرة وقتلهم للنبيين.

وهذه العقوبة هي الذل، والمسكنة، وغضب الله. وهذه الذلّة والمسكنة تجري في حياتهم السياسية والإقتصادية والاجتماعية بموجب سنن الله تعالى، في إذلال العصاة والمتمردين.

ولكن الله تعالى عاقب أجيال الأبناء من اليهود، بهذه السُّنَّة، بجرائم الآباء، فعمّتهم العقوبة الإلهية في الدنيا.

تأملوا في هاتين الآيتين من «سورة البقرة» و«آل عمران»:

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّـه ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّه وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّه وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّه وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾.

وليس من شك أن هذه العقوبة التي سنها الله تعالى لهم لم تخص أجيال اليهود الذين كانوا يقترفون جرائم قتل النبيين، بل تَعمّ أجيال اليهود **﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾** وهي من مصاديق سُنَّة التعميم.

٧. التعميم في النتايج والسنن الإلهية في نفس الإنسان:

تتحقق السنن الإلهية في حياة الناس في مساحتين:

مساحة المجتمع والتاريخ. وفي مساحة النفس.

وقد تحدثنا عن سُنَّة التعميم في السنن الإلهية في مساحة المجتمع والتاريخ، ونقول الآن إنَّ سُنَّة التعميم تشمل السنن الإلهية في مساحة النفس البشرية كذلك.

ففي سورة البقرة يحدثنا القرآن عن مسلسل طويل من تعنّت

بنـــي إســـرائيل وكفـــرهم بـــأنعم الله، وعنـــادهم، ولجـــاجهم، وتشكيكهم في آيات الله، وقتلهم للنبيين، وعصيانهم، وتمردهم.

ثم يقول القرآن الكريم بعد ذلك في بيـان سُـنَّة الله تعـالى فـي عقوبة بني إسرائيل بعد كل هذا الجحود والكفران والعصيان:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِـكَ فَهِـيَ كَالْحِجَـارَةِ أَوْ أَشَـدُّ قَسْوَةً﴾[1].

ولاشك أن هذه القسوة فـي قلـوبهم، والتـي يصـفها الله تعـالى بتحجـر القلـوب أو أشـدّ مـن ذلـك، كانـت نتيجـة لتلـك الجـرائم والجحود والمعاصي وتعبير القرآن دقيق **﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّـن بَعْدِ ذَلِكَ﴾**، أي: من جراء هذه المعاصي، فيما بعد.

ولاشكّ أن المخاطبين بهذه الآيـة اليهـود المعاصـرون لرسـول الله ﷺ بدليل سياق آيات سورة البقرة وبدليل ضمير الخطاب في الآية الكريمة **﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾**... ولكن بسـبب تعنـت آبـائهم وتمرّدهم وجحودهم، ورضى الأبناء بفعل الآباء.

---

١ ـ البقرة: ٧٤.

٨ـ تعميم اللعن والبراءة:

من مصاديق التعميم... تعميم اللعن والبراءة للقتلة والمجـرمين والراضين بجرائمهم.

وفي النصوص المأثورة عن أهل البيت في زيارة الحسـين عليه السلام نلتقي هذا التعميم بوضوح وصراحة.

ففي النص المعروف بزيارة وارث نقرأ:

«لعـن الله أمـةً قتلتـك، ولعـن الله أمـةً ظلمتـك، ولعـن الله أمـةً سمعت بذلك فرضيت به».

وهو نص عجيب، يستوقف الإنسان للتأمل والتفكير.

فهذه طوائف ثلاثة تعمّهم اللعن والبراءة: مـن القتلـة، والـذين أيدوا القتلة بالدعم والإسناد، والذين رضوا عنهم.

ﮋﮊ

اللعن والبراءة

واللعن والبراءة هو إعلان الفصل والبينونة الكاملة، ولا يصح، ولا يجوز اللعن إلاّ عندما تنقطع آخر الخيوط من وشائج[1] الولاء في هذه الأُمة.

فإذا انقطعت هذه الخيوط، خيطاً بعد خيط، عند ذلك يكون كل من الفريقين أمة منفصلة عن الفريق الآخر، فإذا كانت إحدى الأُمتين موضع رحمة الله «مرحومة»، فلا محالة تكون الأُمة الأخرى موضع غضب الله «ملعونة». وهذا هو الحد الفاصل والحاسم بينهما.

فإن الله تعالى قد وصل بين المسلمين بوشيجة الولاء[2]، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[3].

وهي أقوى الوشائج الحضارية في تاريخ البشرية، ومن

١ ـ الوشيجة: المشتبك والنسيج المتداخل.

٢ ـ وشيجة الولاء: شبكة الولاء.

٣ ـ التوبة: ٧١.

يدخل في مساحة الولاء من المؤمنين يستحق من أعضاء هذه الأسرة الكبيرة، النصر والسلام والعصمة، واقصد بالعصمة أن يحفظوا دمه وعرضه «كرامته» وماله، وقد أعلن رسول الله ﷺ حق المسلم على المسلمين في «العصمة»، في خطاب عام، ألقاه على المسلمين في مسجد الخيف بمنى، في آخر حجة حجها رسول الله ﷺ بالمسلمين فقال:

«يا أيها الناس اسمعوا ما أقول لكم واعقلوه، فإني لا ادري لعلّي لا ألقاكم بعد عامنا هذا. ثم قال: أي يوم أعظم حرمة؟ قالوا: هذا اليوم.

قال: فأي شهر أعظم حرمة؟ قالوا: هذا الشهر.

قال: فأي بلد أعظم حرمة؟ قالوا: هذا البلد.

قال: فان دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه، فيسألكم عن أعمالكم.

ألا هل بلغتْ: قالوا: نعم.

قال: اللهم اشهد ألا من كانت عنده أمانة فليؤدها، فانه لا يحل دم امرئ مسلم، ولا ماله إلا بطيبة نفسه، ولا ترجعوا بعدي كفاراً»[1].

ومن حق المسلم على المسلم في دائرة الولاء: السلام، والنصرة. ونقصد بالسلام أن يسلم المسلمون من يده ولسانه.

فقد روي عن رسول الله ﷺ في ذلك: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه»[2].

ولا نعرف فيما نعرف من العلاقات الحضارية علاقة أقوى وأمتن، وفي نفس الوقت أرق من علاقة الولاء.

ويدخل في دائرة الولاء هذه كل من يشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدهما دخل في عصمة الولاء وعَصَمَ من المسلمين دمه وماله وعرضه.

---

١ ـ وسائل الشيعة ١٩: ٣ وسنن ابن ماجة ٢: ١٢٩٧ ومسند احمد بن حنبل ٥: ٤١١.

٢ ـ أورده الكليني في الكافي والمجلسي في البحار والحر العاملي في الوسائل وأخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما والترمذي في سننه والحاكم في المستدرك والمتقي في كنز العمال والهيثمي في مجمع الزوائد.

وإذا انقطع ما بينهما من العصمة كان كل فريق منهما أمة.

ورحم الله (زهير بن القين)، فقد كان واعياً لهذه الحقيقة، لمّا خاطب جيش بني أُمية يوم عاشوراء، فقال لهم:

«يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار. إن حقاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وكنتم أمة»[1].

وهذا وعي دقيق لحقيقة كبرى من حقائق هذا الدين، فإن العصمة إذا ارتفعت بين فريقين من المسلمين، ووقع بينهما القتل، وبغى أحدهما على الآخر، كان كل فريق منهما أمة، فإذا كانت إحداهما مرحومة كانت الأُخرى ملعونة لا محالة.

ഇഗ

---

١ ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٤٣.

الطوائف الملعونة في زيارة (وارث)

نعود إلى الطوائف الثلاثة التي ورد اللعن عليهم في زيارة الحسين عليه السلام وهم:

القتلة، والمؤيدون لهم، والراضون بفعلهم. والنص كما يلي:

لعن الله أمةً قتلتكم

ولعن الله أمةً ظلمتكم

ولعن الله أمةً سمعت بذلك فرضيت به.

و**الطائفة الأُولى** محدودة بمن حضر كربلاء. في محرم سنة ٦١هـ

و**الطائفة الثانية** أوسع من الطائفة الأُولى، لأَنها تشمل كل الذين دعموا وأيّدوا القتلة، بالمال والسلاح والإعلام والإِعداد، حضروا كربلاء يوم عاشوراء سنة ٦١ هجرية أم لم يحضروا كربلاء في هذا التاريخ.

الطائفة الثالثة أوسع هذه الطوائف جميعاً، وتمتد على امتداد التاريخ، وتتصل حلقاتها إلى يومنا الذي نعيش فيه.

ومن عجب أن هذه الطائفة تستحق من اللعن والعذاب والبراءة ما تستحقه الأُولى والثانية.

وكان الحسين عليه السلام إذا طلب النصرة من أحد، فلم يستجب له ينصحه أن يبتعد عن الموقع، لئلا يسمع إِستغاثته، فلا يغيثه، وكان يقول لهم: «من سمع واعيتنا أو رأى سوادنا، فلم يجبنا، ولم يغثنا، كان حقاً على الله أن يكبّه على منخريه في النار»[1].

وينعكس هذا الوعي للتاريخ، وربط الحاضر بالماضي، والأجيال بعضها ببعض في «زيارة عاشوراء» بصورة واضحة وبنصوص مؤثّرة. وفيما يلي ننقل أحد هذه النصوص:

«لعن الله أمّةً أسست أساس الظلم والجور عليكم أهل البيت. ولعن الله أمّةً دفعتكم عن مقامكم، وأزالتكم عن مراتبكم التي رتبكم الله فيها، ولعن الله الممهِّدين لهم بالتمكين من قتالكم. برئتُ إلى الله واليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم وأوليائهم. اني سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم إلى يوم القيامة».

١ ـ ثواب الأعمال ص٣٠٨ ح١ ورجال الكشي ص١١٣ ح١٨١ والبحار٢٧: ٢٠٤ ح٦.

إنّ الحياة ساحة صراع، والصراع هو العمود الفقري للتاريخ. ولا نستطيع أن نُعرّف التاريخ بأفضل من هذا التعريف. فإن التاريخ هو الصراع وما عدا ذلك فهو على هامش التاريخ وليس من صلب التاريخ.

ولا أقصد بالصراع، الصراع الطبقي كما يقول ماركس، ولا نظرية التحدي والاستجابة في التنافس العسكري والاقتصادي والسياسي، وإنما أقصد بالصراع الصراع بين التوحيد والشرك، وهو صراع الحق والباطل. وهذا هو بالذات جوهر التاريخ والعمود الفقري للتاريخ وكل صراع آخر عدا هذا الصراع، فهو على هامش التاريخ، وليس من صلب التاريخ.

وهذا هو الصراع الذي نهض بإمامته إبراهيم عليه السلام في التاريخ وتبعهُ في ذلك أنبياء الله ورُسله والصالحون من عباده، وساحة الحياة يتقسّمها هذا الصراع.

والناس، كل الناس، بين جبهتي هذا الصراع بدرجات ومواقع

مختلفة، وتتداخل أطراف هذا الصراع، وتتشابك الخطوط في الساحة، حتى يصعب التمييز بين الحق والباطل في ساحة الصراع.

ولابدّ للإنسان الذي يريد أن يلتزم جانب الحق في هذا الصراع من معرفة دقيقة لهذه الساحة، ووعي وبصيرة نافذة لفرز الحق عن الباطل، ولا يستطيع الإنسان أن يأخذ موقعه الصحيح في هذه الساحة المتشابكة من غير هذا الوعي والمعرفة.

والعامل الأهم في هذا الوعي هو التقوى.

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾[١].

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾[٣].

و«عاشوراء» عامل دقيق للفرز بين الحق والباطل في هذه الساحة التي طالماً اختلط فيها الحق والباطل.

١ ـ البقرة: ٢٨٢.

٢ ـ الطلاق: ٢.

٣ ـ الحديد: ٢٨.

ولست أدري أي سر أودع الله تعالى في هذا اليوم العجيب من أيام التاريخ. فقد كان عاشوراء. منذ سنة ٦١ هجرية عاملا أساسياً يشطر الناس إلى شطرين متميزين شطر مع الحسين عليه السلام وشطر ضد الحسين عليه السلام. وهذان الشطران كانا قائمين قبل سنة ٦١ هـ وكان كل منهما يقف في قبالة الآخر ويعارضه ويضادّه.

الشطر الأول هو الشطر الذي وقف على امتداد التاريخ مع الأنبياء والمرسلين وهو شطر الصالحين، من الناس.

و**الشطر الثاني** هو الشطر الذي تصدّى لدعوة الأنبياء في التاريخ وهو شطر المجرمين والمفسدين من الناس.

ذلك أن الحسين عليه السلام وارث الأنبياء والمرسلين والصالحين في التاريخ ودعوة الحسين عليه السلام امتداد لدعوة الأنبياء. و(يزيد) كان على نهج الطغاة في التاريخ، يرث عنهم طغيانهم وتمردهم وصدّهم عن سبيل الله، وكبرياءهم وخيلاءهم.

وهذان الشطران من الناس منتشران على كلّ مساحة التاريخ، ولذلك فهما يصبغان كل التاريخ بصبغتهما الخاصة. فكلّ من

ورث التوحيد وقيمه وكان مع الحق كان راضياً بموقف الحسين عليه السلام، وساخطا على موقف بني أُمية في عاشوراء، وكان على خط الأنبياء والمرسلين.

وكل من ورث بَطَرَ بني أُمية واستكبارهم وخروجهم على حدود الله وأحكامه وصدّهم عن سبيل الله، كان على خط الطغاة والمستكبرين في التاريخ.

وعاشوراء، علامة فارقة بين هذين الشطرين من التاريخ والمجتمع، يشطر التاريخ والمجتمع إلى شطرين متميزين.

وكل أحداث الصراع بين الحق والباطل يمكن أن تكون علامة فارقة بين الحق والباطل في التاريخ والمجتمع، ولكن الله تعالى خصّ عاشوراء. من بين أحداث كثيرة بهذه الميزة العظيمة الواضحة.

و«الموقف» من هذين الشطرين «الولاء» و«البراءة» الولاء للشطر الأول والبراءة من الشطر الثاني، والحسين عليه السلام هو العلامة الفارقة والفاصلة بين هذا الشطرين.

«إني سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، ووليّ لمن والاكم وعدو لمن عاداكم».

وَتمتد مساحة كل من هذين الشطرين، على امتداد التاريخ والمجتمع، وهو أوسع المساحات جمعياً في حياة الناس.

ذلك أن عامل «الرضا» و«السخط» يدخل في تلوين هذه الساحة بلون الولاء والبراءة والأولياء والأعداء.

الولاء والبراءة بالموقف والعمل وليس بالنية

و«الولاء» و«البراءة» ليس بمعنى أن يضمر الإنسان الحب والبغض والإِقبال والإِدبار، وإِنما هما موقفان بكل ما في الموقف من معنى.

ولربما يكون أصدق كلمة في التعبير عن هذين الموقفين هذه الجملة القوية والمؤثرة في زيارة عاشوراء «إني سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، وولي لمن والاكم وعدو لمن عاداكم».

ومساحة هذا «السلم» و«الحرب» من أولياء الحسين عليه السلام وأعداء الحسين عليه السلام ليست عاشوراء وكربلاء فقط، وإنما مساحته التاريخ والمجتمع... وعامل هذا البسط والسعة هو «الرضا» و«السخط». فنفهم من زيارة عاشوراء هذا الوعي الدقيق للموقف من التاريخ والمجتمع... ففي نصوص هذه الزيارة:

«لعن الله أمةً قتلتكم ولعن الله الممهدين لهم بالتمكين».

وهاتان طائفتان تمتدان على مساحة واسعة من المجتمع. وتضيف زيارة وارث طائفة ثالثة إلى دائرة اللعن والبراءة.

«ولعن الله امة سمعت بذلك فرضيت به». وهذه هي الدائرة الثالثة، وهي أوسع هذه الدوائر.

فلا تبقى بعد هذه التوسعة مساحة من التاريخ أو المجتمع لا يشملهما موقف «السلم» و«الحرب» و«الولاء» و«البراءة» الذي تحدثنا عنه.

«عاشوراء» إذن بطاقة إنتماء إلى كل من هاتين الجبهتين المتصارعتين على امتداد التاريخ، جبهة الحق وجبهة الباطل،

وجبهة التوحيد وجبهة الشرك.

والانتماء إلى كل من هاتين الجبهتين يتم من خلال عاملين، هما «العمل» و«الرضا».

الرضا الضحل والرضا العميق

هذا كله إذا كان «الرضا» صادقاً. فان الأُمنيّة الكاذبة، والرغبة الكاذبة، والحب الضحل لا يُدخل الإنسان في دائرة الولاء ولا يخرجه عن دائرة الأعداء.

ولا يكون الرضا والسخط صادقين إلاّ إذا اقترنا بالعزم والعمل.

أما عندما يكون «الرضا» و«السخط» مجردين عن الموقف والعزم والعمل فلا قيمة لمثل هذا الرضا والسخط.

و قد كان الشاعر الفرزدق رضي الله عنه دقيقاً في وعي هذه الحقيقة عندما سأله الحسين عليه السلام عما وراءه في العراق لمّا غادر الحسين عليه السلام الحجاز إلى العراق، في ذي الحجة سنة ستين من

الهجرة، فأجابه: (قلوبهم معك، وسيوفهم عليك)[١].

فإن القلوب إذا افترقت عن السيوف، فسوف لن يكون بوسع هذه القلوب أن تخرج أصحابها من دائرة «أعداء الله» وتدخلهم في دائرة «أولياء الله».

وقد وجدنا أن هذا الحب الضحل والضعيف الذي كان يضمره الناس في العراق يومئذ للحسين عليه السلام لم يخرجهم من جبهة بني أُمية ولم يدخلهم يومئذ في جبهة الحسين عليه السلام.

وليس بوسعنا نحن أن نضع (ولاءنا) في التاريخ والمجتمع في مثل هذا الموضع الضحل من الرضا والسخط والحب والبغض، وإنّما نوالي الذين صدقوا في رضاهم وحبهم لأولياء الله، وصدقوا في سخطهم وبغضهم لأعداء الله.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا حب أوليائه، والرضا بمواقفهم، وبغض أعدائه، والسخط عليهم، وأن يرزقنا الصدق في هذا الرضا والسخط والحب والبغض جميعاً.

١ ـ شرح إحقاق الحق للمرعشي ٢٧: ٢٠٠ عن التبر المذاب للخوافي: ٧٥.

الفهرس

الأعداد المطبوعة من سلسلة الثقافة الإسلامية

١ ـ كيف نقرأ القرآن.

٢ ـ الاجتهاد والحياة، حوار على الورق.

٣ ـ حوارات وإثارات حول المرجعية والفقاهة .

٤ ـ سلطات الفقيه وصلاحياته في عصر الغيبة.

٥ ـ الانتظار الموجه.

٦ ـ الغربة والاغتراب.

٧ ـ مشروع الوحدة الإسلامية ثقافيا واجتماعيا.

٨ ـ خطاب الاستنصار الحسيني من المدينة إلى كربلاء.

٩ ـ شروط العمل وساحاته.

١٠ ـ دروس عن الثقافة الإدارية والقيادية في الإسلام.

١١ ـ العلاقة مع إسرائيل.

١٢ ـ وقفة مع الدكتور الشيخ البـرّاك اسـتاذ جامعـة ام القرى بمكّة المكرّمة.

١٣ ـ أدب التعامل مع الخطاب الإلهي.

١٤ ـ الفئات المعارضة لخروج الحسين عليه السلام.

١٥ ـ مناقشة الفهم الآخر لعاشوراء.

١٦ ـ حضور القلب في الصلاة.

١٧ـ الشعائر والشعارات الحسينية (القسم الأول).

١٨ـ الشعائر والشعارات الحسينية (القسم الثاني)

١٩ـ اللّقاء بين الحوزة والجامعة.

٢٠ ـ لبيك داعي الله.

من منشورات مجمع أهل البيت عليهم السلام ـ العراق

مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام ـ العراق / النجف الأشرف